تحديث الثقافات القديمة

من دورين ماسي وبات جيس (المحرران)
مكان في العالم ؟ الأماكن والثقافات والعولمة(1995)
ستيوارت هول

ترجمة بتصرف
ا.د . مضر خليل عمر

مقدمة المحرر

وُلد ستيوارت هول في كينغستون ، جامايكا ، عام 1932، وانتقل إلى إنجلترا عام 1951. اشتهر هول بعلاقته الطويلة مع مركز الدراسات الثقافية المعاصرة في جامعة برمنغهام ، الذي أداره من عام 1968 إلى عام 1979. في حين يُنسب إلى سلفه ، ريتشارد هوغارت ، الفضل على نطاق واسع في تأسيس ما يُسمى بحركة الدراسات الثقافية في بريطانيا ، أشرف هول على ازدهار الحركة تحت قيادته للمركز . يُستخدم مصطلح الدراسات الثقافية بشكل فضفاض في الأوساط الأكاديمية الناطقة باللغة الإنجليزية للإشارة إلى الدراسة العامة للظواهر الثقافية ، وخاصة في الغرب الصناعي . ومع ذلك ، كان المعنى المرتبط ارتباطًا وثيقًا بمدرسة برمنغهام في عصر هول معنىً مُسيّسًا بشكلٍ صريح ، مُؤكدًا على قوة صناعة الثقافة المُتجسدة في التلفزيون والأدب والأزياء والأفلام وما إلى ذلك . أدرك هول أن الثقافة الشعبية وصناعة الثقافة التي تُنتجها تتمتعان بقوة هائلة في المجتمع المعاصر . فباستهلاك منتجات صناعة الثقافة ، يكتسب الناس هويتهم الثقافية ، وفقًا لهول . بالنسبة لهول ومعاصريه ، فُهمت الرأسمالية الاستهلاكية على أنها تتحكم في الإنتاج الضخم للمعنى الثقافي .

في عام ١٩٧٩ ، عُيّن هول أستاذًا لعلم الاجتماع في الجامعة المفتوحة ، وتقاعد منها عام ١٩٩٧. ومثل العديد من الباحثين الذين نُقِلَت أعمالهم في هذا الكتاب ، فإن أبحاث هول مُستمدة من تراث ماركسي . في الواقع ، عمل هول مع اثنين من المُنظّرين الثقافيين الماركسيين البارزين الآخرين المذكورين في هذا الكتاب ، وهما إي. بي. تومسون وريموند ويليامز في خمسينيات القرن الماضي . وأسسا معًا مجلتي "نيو ليفت ريفيو" و"ذا نيو ريزونر"، من بين مشاريع أخرى . ومن أعمال ستيوارت هول الأخرى "الفنون الشعبية" (الذي كتبه مع بادي وانيل ، ١٩٦٤) ، و"المقاومة من خلال الطقوس : ثقافات الشباب الفرعية في بريطانيا ما بعد الحرب" (١٩٨٩) ، و"أسئلة الهوية الثقافية" (حرره بالاشتراك مع بول دو جاي، ١٩٩٦) ، و"الثقافة البصرية : القارئ" (حرره بالاشتراك مع جيسيكا إيفانز، ١٩٩٩).

في هذا الكتاب الجذاب ، "ثقافات جديدة للقديمة ؟" ، نرى هول في أبهى صوره التعليمية . **الثقافة** – التي ، كما تعلمون الآن ، مصطلحٌ مُلتبس - تُعرّف بإيجاز **بأنها مجموعة من المعاني المشتركة** . وضمن هذه المجموعة المرنة من المعاني ، تتشكل هويتنا كجزء من مجتمع . كما هو الحال مع اللغات ، تُنتج الثقافات المعنى وتنقله . ورغم أن هول ليس جغرافيًا ، إلا أنه يُدرك جيدًا **أن المكان يلعب دورًا محوريًا كمرساة للثقافات والهويات المرتبطة بها** . مع العولمة المعاصرة وتدفقاتها السريعة من البشر والسلع والمعلومات ، بدأت مجموعات المعاني المشتركة لدينا تبتعد عن فكرة الدول القومية المحدودة كونها تُوفر الإطار الأهم للهوية . ومع ذلك ، يُشير هول بحرص إلى أن للعولمة تاريخًا طويلًا ، وأن الدول القومية نفسها ليست هياكل طبيعية ، بل يجب استحضارها من وسط الاختلاف . و وفقًا لهول ، هناك استجابتان مُمكنتان في مواجهة هذه التحولات الثقافية . إحداهما استجابة دفاعية ، وهي محاولة لرسم حدود واضحة حول الثقافة ومكانها ، للحفاظ

على نقاء كليهما المُتخيل في مواجهة التغيرات الجذرية . أما الاستجابة الثانية فهي تلك التي تُؤكد على الانفتاح الثقافي من خلال الروابط عبر المكان ، والتي يتناولها هول من خلال مفهوم الشتات .

تُشكل العلاقة الصعبة في كثير من الأحيان بين العولمة والثقافة والهوية موضوعًا لكثير من الأعمال المعاصرة في كل من الأوساط الأكاديمية والأدبية . وفيما يتعلق بالأخير، يُعد عمل سلمان رشدي نموذجيًا ؛ ينظر "آيات شيطانية" (1988) و"أوطان خيالية" (1992) . في الأوساط الأكاديمية ، كتب بول جيلروي ، طالب هول في مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنغهام ، عن السياسات الثقافية للعرق بطرق تُثري مناقشة هول لموسيقى الشتات الأفريقي عبر الأطلسي ؛ ينظر "الأطلسي الأسود : الحداثة والوعي المزدوج" (1991) ؛ وفيما يتعلق بالثقافة والهوية السوداء في بريطانيا المعاصرة ، "لا يوجد أسود في العلم البريطاني" : السياسات الثقافية للعرق والأمة (1987) .

يستمد هول في نظرته النقدية للثقافة الرأسمالية إلهامه القوي من ما يسمى بمدرسة فرانكفورت (نسبةً إلى مدينة فرانكفورت الألمانية ، حيث عمل الباحثون المرتبطون بهذا المنظور في جامعة فرانكفورت) . ومن النصوص الرئيسية كتاب ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو "جدلية التنوير: شذرات فلسفية" ، الذي نُشر في الأصل عام 1947، وتُرجم وأُعيد إصداره عام 2002 ، والذي يُقدم مناقشةً للآثار المُذهلة سياسيًا للثقافة الجماهيرية الرأسمالية . ومن الأعمال الأخرى التي تدعم تحليل هول للاتصالات والإعلام والمعنى الثقافي كتاب رولان بارت "الأساطير" ، الذي نُشر في الأصل عام 1952 وأُعيد إصداره عام 1972 ؛ أعمال جان بودريار الرائدة في مجال السلطة والثقافة والاتصال ، ينظر على سبيل المثال : "مجتمع المستهلك : الأساطير والهياكل" (1970) ؛ ومارشال ماكلوهان (الذي صاغ مصطلح "القرية العالمية") ، "الوسيلة هي الرسالة : جرد للآثار" (1967) .

نعني بالثقافة أنظمة المعاني المشتركة التي يستخدمها أفراد المجتمع أو الجماعة أو الأمة نفسها لمساعدتهم على تفسير العالم وفهمه . هذه المعاني ليست أفكارًا عابرة ، بل هي متجسدة في العالم المادي والاجتماعي . يشمل مصطلح "الثقافة" الممارسات الاجتماعية التي تُنتج المعنى، بالإضافة إلى الممارسات التي تُنظمها تلك المعاني المشتركة . إن مشاركة "خرائط المعنى" نفسها تمنحنا شعورًا بالانتماء إلى ثقافة ما ، وتخلق رابطًا مشتركًا ، وشعورًا بالانتماء إلى جماعة أو هوية مع الآخرين . إن وجودنا ضمن مجموعة من المعاني المشتركة يمنحنا شعورًا بـ "من نحن" ، و"إلى أين ننتمي" ، أي شعورًا بهويتنا الخاصة .

وهكذا، **تُعدّ الثقافة إحدى الوسائل الرئيسية لبناء الهويات واستدامتها وتحويلها** . عادةً ما تُعد الثقافات مجموعات مستقرة نسبيًا أو ثابتة من المعاني والممارسات التي حققت استمرارية راسخة عبر الزمان والمكان . إن عد المرء نفسه "إنجليزيًا" أو "بريطانيًا" يعني حتمًا وضعه ضمن مجموعة من المعاني ذات تاريخ طويل واستمرارية . **فالثقافات تسبق الفرد** . ويبدو أنها توفر إطارًا مرجعيًا أو تقليدًا يربط بين نمط وجوده الحالي وأسلوب حياة مجتمعه . الأسلاف ، مما يُضفي على الثقافة تماسكًا وشكلًا مميزين بمرور الوقت ويجعلها متجانسة داخليًا . يُفترض أن أولئك الذين يتماهون مع ثقافة ما ، والذين يتشاركون هوية ثقافية ، هم الشيء نفسه (متطابقون) بحكم هذه العضوية . عادةً ما يُنظر إلى الثقافات على أنها تشكيلات محددة جيدًا ، ومتميزة بوضوح عن الثقافات الأخرى .

هذا التمييز للاختلاف الثقافي يزيد من الشعور بالتضامن المجتمعي أو الجماعي ("نحن") بين المنتمين ، ويزيد من حدة الشعور بالاختلاف عن "الثقافات الأخرى" ("هم") . ونظرًا لأن الثقافات تُعرّف وتُدرك بهذه الطريقة ، فليس من المستغرب أن يرى العديد من المعلقين أن تأثير العولمة مُقلق للغاية للثقافات والهوية الثقافية . مع تدفقاتها المتسارعة للسلع والشعوب والأفكار والصور ، و"تمدد" العلاقات الاجتماعية ، وتقاربها

الزماني والمكاني ، وحركات هجرة الشعوب والثقافات ، يُخطط للعولمة لزعزعة معالم الثقافة المستقرة . تتفكك التقاليد الراسخة وأساليب الحياة المألوفة بفعل غزو التأثيرات والصور الأجنبية من الصناعات الثقافية العالمية الجديدة ، التي تجدها المجتمعات التقليدية مغرية للغاية ، يستحيل رفضها ، ولكن يصعب احتواؤها .

الاستهلاك العالمي ، وإن كان محدودًا بـ"جغرافية قوته" غير المتكافئة ، ينتشر على النطاق نفسه . يطغى الفيلم الثقافي على كل شيء - بيج ماك ، كوكاكولا ، وأحذية نايكي الرياضية في كل مكان - داعيًا الجميع إلى تبني هويات المستهلك الغربي ، ومُخفيًا الاختلافات العميقة في التاريخ والتقاليد بين الثقافات .

الهجرة، وهي جزء من العملية نفسها ، تنقل شعوبًا من خلفيات وتقاليد متباينة إلى المكان والإطار الزمني نفسه . أحيانًا ، تقع الثقافات في فخ ، بين الرغبة في التنقل والمكافآت المادية للحداثة من جهة ، والحنين إلى نقاء واستقرار وتماسك تقليدي مفقود لم يعد الحاضر يوفره ، من جهة أخرى ، فتتشظى وتتفتت . **إن عواقب العولمة على الثقافة والهوية الثقافية عميقة . كما أنها متناقضة، تتحرك في اتجاهات مختلفة، ويصعب فهمها أو التنبؤ بها . كيف إذن نفهم الشكل المتغير للخريطة الثقافية في أحدث مرحلة من عصر العولمة ؟ كيف تؤثر الروابط الجديدة بين "العالمي" و"المحلي" على الثقافات ؟ هل تتعزز الاختلافات الثقافية أم تتآكل ؟ هل تظهر ثقافات محلية جديدة مع تراجع الثقافات المحلية القديمة ؟ كيف ينبغي لنا أن نفكر في الهوية الثقافية أو نعيد تصورها في هذه الأوقات التي تزداد فيها العولمة ؟**

باختصار، أطرح حجتي في أن العولمة تُجبرنا على إعادة النظر في العديد من مفاهيمنا البديهية حول الهوية الثقافية ، وتُلزمنا بتصور الثقافة بطرق جديدة . يمكننا أن نبدأ عملية تفكيك بعض المفاهيم القديمة للهوية الثقافية ، وطرح مفاهيم بديلة ، من خلال **إعادة النظر في مفهوم المكان** . ما الذي يتطلبه التفكير بعمق في العلاقات المتغيرة بين الثقافة والهوية والمكان ؟ ماذا نعني عندما نقول إن الثقافات هي أنظمة للمعنى ؟ كيف تعمل ؟ إحدى طرق فهم كيفية عمل أنظمة المعنى هذه هي النظر إلى الثقافة من منظور نموذج اللغة . فالأشياء – الأشياء ، الأحداث ، الأشخاص - ليس لها معنى ثابت ، أو حقيقة واحدة ، ظاهرة للجميع ، ونعكسها ببساطة في اللغة التي نستخدمها عنها . بل **من خلال اللغة نعطي معنى للعالم** .

الثلج لا يدرك أنه "ثلج" ، نحن من نتفق ، ضمن تقاليد لغتنا ، على تسمية... تلك المياه البيضاء الناعمة الباردة المتجمدة من السماء "ثلجًا" ؛ وبذلك نعطيها معنىً بتمييزها عن ظاهرتين أخريين وثيقتي الصلة ، وهما "المطر" و"البَرَد" . يُقال إن شعب الإنويت ، الذين يمتلكون الكثير من هذه المادة ، لديهم كلمات أكثر بكثير في لغتهم للتمييز بين أنواع "الثلج" المختلفة . لذا ، تتكون الثقافات من أنظمة مختلفة تُنتج المعنى ، وتُصنّف العالم تصنيفًا ذا معنى . وبالتالي ، هناك علاقة وثيقة جدًا بين أنواع المعاني والانعكاسات المُجسّدة في اللغة الإنجليزية والثقافة الإنجليزية . تعمل أنظمة المعاني أو الثقافات كاللغات . فهي تُزوّدنا بأطر تفسيرية نفهم من خلالها العالم . إن استخدام شفرة اللغة نفسها أو نظام المعاني لفهم العالم يضعنا ، نحن الناطقين باللغة الإنجليزية ، ضمن ما يُسمى أحيانًا "المجتمع التفسيري" نفسه .

لا يمكن للأفراد تغيير اللغة - معاني الكلمات - بإرادة ذاتية ؛ ومع ذلك ، فاللغة في تغير مستمر تاريخيًا . وهذا يوحي **بأن اللغة بناء اجتماعي جماعي مشترك ، مع أن كل واحد منا يستطيع استخدامها بشكل فردي للتعبير عما نعنيه .** وبالمثل ، لا يمكن تثبيت أنظمة المعنى أو الثقافات ، إذ لا سبيل للإصرار على أن الأحداث أو الممارسات أو الطقوس أو العلاقات تعني شيئًا واحدًا فقط ، أو لمنعها ، بمرور الوقت ، أو في سياقات مختلفة ، من اكتساب معانٍ جديدة . ففي الثقافة ، كما في اللغة ، يُغير كل استخدام المعنى أو يُغيره بطرق جديدة ؛ ومع مرور الوقت (في فترات أو سياقات مختلفة ، وفيما يتعلق بمواضيع أو مواقف جديدة) ، ستترسخ معانٍ أو انحرافات جديدة في الاستخدام الشائع... قد تظهر بعض المعاني الجديدة بدمج معانٍ قديمة ، بينما تتلاشى معانٍ أخرى أو تصبح عتيقة ، عديمة الفائدة للتواصل ، نتيجةً لقلة استخدامها أو

عدم ملاءمتها لظروف متغيرة . قد نحاول استخدام هذه المعاني كما نستخدم اللغة ، بأقصى دقة ممكنة ، لنقول ما نعنيه ، ونعبر عن أنفسنا بشكل مثالي .

لكننا نعلم أن كل عبارة ستتعثّر قليلاً عندما يُستولى عليها أو يُفسّرها أو يُترجمها إلى إطارها المرجعي الخاص من قِبل الأشخاص الذين نتواصل معهم . تتغير المعاني وتكون دائمًا قابلة للتأويل - والآخرون لا يفهمون أبدًا كل ما نقوله تمامًا أو يدركون كل فارق بسيط في المعنى الذي نحاول التعبير عنه . من ناحية أخرى ، كما هو الحال في التواصل مع... يتطلب منا متحدث اللغة السواحيلية استخدام رمز لغوي مشترك ، لذا فإن التعبير عن معنى ثقافي يتطلب منا وضع أنفسنا ضمن نظام معنى ثقافي مشترك ، ثم استخدامه للتعبير عن شيء ما أو إدراكه - حتى لو لم يُعبَّر عن الفكرة بهذه الطريقة من قبل ، وغالبًا ما يتجاوز التقاليد أو الأعراف الثقافية الراسخة . تحمل الإشارة إلى "الصليب" معنى مختلفًا تمامًا في بلد مسيحي ، مقارنةً ببلد مسلم . يثير علم المملكة المتحدة مشاعر مختلفة تمامًا في دبلن ولندن .

لطالما استخدمنا اللغة كنموذج لكيفية عمل الأنظمة الثقافية . ولكن يجب أن نُذكِّر أنفسنا **بأن اللغة نفسها هي أيضًا أحد الأنظمة الثقافية الأساسية** . يمكن للأشخاص الذين يتشاركون لغة واحدة التواصل مع بعضهم البعض أو "فهم" العالم فيما بينهم . اللغة المشتركة هي شيء يُسهم في منح الشخص هوية ثقافية - فكونك متحدثًا للغة الغيلية أو الباسكية أو الإنجليزية القياسية أو الأردية أو العامية يعني أنك تنتمي إلى نوع معين من الأشخاص . إنها تضعك في جزء محدد من خريطة اللغة : مجتمع المتحدثين باللغة الإنجليزية أو الغيلية أو الباسكية أو الأردية أو العامية الذي "ينتمي" إليه .

التحدث بلغة ما يعني أنك على دراية بقيم مستخدمي اللغة الآخرين ، حتى لو لم تكن تشاركهم فيها . ولهذا السبب ، كان الحق في استخدام لغة معينة ، تاريخيًا ، جزءًا مهمًا للغاية من النضالات من أجل الاستقلال الوطني ؛ ولهذا السبب يُعدّ الإلزام بالتحدث بلغة شخص آخر - لغة الفاتح أو المستعمر، على سبيل المثال - رمزًا قويًا للخضوع الثقافي . ومع ذلك ، فإن اللغة ليست سوى أحد أنظمة المعنى التي تُنتج الثقافة . **تتكون الثقافة من العديد من هذه الأنظمة** . على سبيل المثال ، يُعد **الدين** حاملاً قويًا للمعاني المشتركة المتعلقة بالمقدسات ، والتي تحمل قدرًا كبيرًا من المعنى الرمزي والسلطة في العديد من الثقافات . ومرة أخرى، لطالما كان الدين مصدرًا قويًا لـ"الانتماء" ، وربما لهذا السبب تحديدًا ، مصدرًا للانقسام وتمييزًا للاختلاف و"الاختلاف" (على سبيل المثال ، بين الهندوس والمسلمين أثناء تقسيم الهند ؛ أو بين البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا الشمالية اليوم) .

ومن المصادر القوية الأخرى للمعاني الثقافية والهويات الثقافية العادات والتقاليد : الطرق التقليدية المميزة التي تُمارس بها الأمور في "هذا" الجزء من البلاد أو العالم ، على عكس "ذلك" الجزء ؛ الطقوس والممارسات اليومية التي تُرسخ ما كانت عليه "العادات الشعبية" عبر العصور ، أو التي تُحيي المناسبات الخاصة (كالمواليد ، والبلوغ ، والزواج ، والوفيات ، والذكرى السنوية) ، وتربط أشكال الحياة الحالية بأساليب حياة الأجداد المميزة . هناك أيضًا تقاليد مشتركة في **التمثيل** : أنواع الرسم أو الزخرفة ؛ سرديات عن ماضي "القبيلة" ؛ منحوتات أو حرف يدوية ذات أهمية خاصة في الحياة العملية أو العائلية أو المقدسة للمجموعة ؛ أشكال الملابس والزينة ؛ أو القصص (الشعبية أو الراقية) التي تحفظ في الذاكرة الجماعية السجل التاريخي للمجموعة .

"المكان" نظام ثقافي آخر... نستخدم خطاب "المكان" لإعطاء معنى للحياة ولتحديد مكانتنا بطرق محددة داخل المجتمع ونظام معتقداته . أود أن أزعم أن الثقافات غالبًا ما تُفهم على أنها "مكان" بمعنيين على الأقل :

1) نربط "المكان" بموقع فعلي تداخلت فيه علاقات مختلفة عديدة بمرور الوقت ، مما أنتج إحساسًا كثيفًا وغنيًا بالحياة . حتى وقت قريب ، كان يُفترض أن فكرة المكان عنصر مهم ، وإن لم يكن ضروريًا ، في طريقة فهمنا للثقافات . في الواقع ، يمكن أن تتطور أنظمة معانٍ مشتركة بين أشخاص يعيشون في أماكن مختلفة جدًا - عبر الزمان والمكان . في الواقع ، قد يتزايد هذا الاتجاه في ظل أحدث أشكال العولمة ، حيث يحافظ المهاجرون عبر الوطنيين ، على سبيل المثال ، على روابط مهمة بين موطنهم الأصلي وموطنهم .

تُؤدي أنظمة الاتصالات الحديثة إلى ظهور "مجتمعات ذات اهتمامات مشتركة" (مثل لاعبي الشطرنج) ، أو "مجتمعات ذوق" مشتركة (مثل مُحبي الأوبرا ، وهواة موسيقى الجاز، ومُحبي مسلسل "نيبرز" أو "إيست إندرز") ، أو أذواق استهلاكية مشتركة (مثل أزياء الشباب) بين أشخاص مُتباعدين على نطاق واسع ، لا يتشاركون مكانًا واحدًا ، وربما لم يلتقوا قط . كما يُمكن لأنظمة المعنى المُشتركة أن تصمد أمام الفواصل المكانية الطويلة . تخيّل الكفاح الناجح للحفاظ على التقاليد والعادات الشعبية حية بين العديد من المجتمعات المُنفية أو المُهاجرة (مثل العبيد السود في العالم الجديد ، واليهود الأرثوذكس في الشتات في أوروبا ، والبورتوريكيين أو الصقليين في نيويورك ، واللاتفيين والرومانيين في ميلووكي) . ومع ذلك ، ما يزال من الشائع عد الثقافات مُرتبطة ببعضها البعض . حول التفاعل المستقر بين الأشخاص نفسهم ، الذين يقومون بالأشياء نفسها ، مرارًا وتكرارًا ، في الموقع الجغرافي نفسه - وهي مجموعة من المعاني التي نربطها تقليديًا بـ "المكان" .

2) بعبارة أخرى ، **على الرغم من أن "المكان" ليس ضروريًا حرفيًا للثقافة ، إلا أنه يبدو بمثابة ضمان رمزي للانتماء الثقافي** . فهو يضع حدودًا رمزية حول ثقافة ما ، ويميز بين من ينتمون إليها ومن لا ينتمون إليها.. ويضمن استمرارية أنماط الحياة والتقاليد بين سكان متجمعين ومترابطين ، يعيشون معًا في البيئة المكانية نفسها ، منذ "أزل" . مرة أخرى ، دعونا نؤكد أنه من الممكن التفكير في العديد من الثقافات التي تحافظ عليها مجموعات غير مستقرة في مكان واحد ، وتأثيرات ثقافية بين مجموعات لم تتشارك المكان نفسه قط . ومع ذلك ، فإن الاستقرار المادي ، واستمرارية العمل ، والآثار طويلة الأمد على أساليب الحياة الناشئة عن التأثير المُشكِّل للموقع والبيئة المادية ، إلى جانب فكرة أن هذه التأثيرات الثقافية قد مورست بين سكان مستقرين ومترابطين بعمق من خلال علاقات الزواج والقرابة ، هي معانٍ نربطها ارتباطًا وثيقًا بفكرة الثقافة ، والتي تُوفر طرقًا قوية لتصور ماهية "الثقافة" ، وكيفية عملها ، وكيفية انتقالها والحفاظ عليها .

عندما تُدعَّم أنظمة المعاني المشتركة بالاستقرار التاريخي الطويل للسكان و"التشكيل" في بيئة مادية واحدة ، مع روابط قرابة قوية نتيجةً للتزاوج المستمر عبر الأجيال ، نحصل على فكرة قوية جدًا ومحددة عن الثقافة والهوية الثقافية . هذا التعريف للثقافة ، وإن لم يكن وراثيًا أو بيولوجيًا في الواقع ، غالبًا ما يُنظر إليه كما لو كان جزءًا من طبيعتنا البيولوجية ، لارتباطه بتشارك الثقافة بين أفراد تربطهم صلة قرابة ونسب ومكان إقامة وأصل مشترك طويل ومتواصل . نُطلق على هذا التعريف اسم **"العرقية"** وهوية ثقافية قوية ومحددة . تنشأ العرقية عندما تكون الأنشطة وأنظمة المعنى المشتركة في مكان ما مدعومة بقرابة وروابط دم مشتركة ، والتي يمكن أحيانًا "قراءة" دليلها في بعض السمات الجسدية المشتركة . خصائص السكان ، عندما يتشارك الناس ليس فقط ثقافةً ، بل عرقًا ، فإن انتمائهم أو ارتباطهم بجماعةٍ ومكان ، وشعورهم بالهوية الثقافية ، مُحددٌ بدقة . في الواقع، **تُعدّ العرقية شكلًا من أشكال الهوية الثقافية** ، التي ، على الرغم من كونها مبنية تاريخيًا كسائر الهويات الثقافية ، إلا أنها متحدةٌ على مستوياتٍ عديدة على مدى فترةٍ طويلة ، لدرجة أنها تُعاش كما لو كانت مطبوعةً ومنقولةً من الطبيعة ، خارج ما نُسميه الثقافة أو التاريخ . وهنا تظهر الثقافة ، ويُدافع عنها ، كجزءٍ من أقارب الفرد ، وتستند الهوية الثقافية إلى مفاهيم "الدم والتربة" .

باختصار ، يُعدّ **المكان** أحد الخطابات الرئيسية في أنظمة المعنى التي نُسميها الثقافة ، وهو يُساعد على استقرار الأنماط الثقافية وتثبيت الهويات الثقافية ، كما يُقال ، "خارج إطار التاريخ" . لا شك أن هذا الارتباط بالمكان هو أحد أقوى أشكال فهمنا البديهي للثقافة . ويبدو أنه قائم حتى مع غياب أي أساس تاريخي قوي . ولذلك ، نصل إلى استنتاج مفاده أننا نعد الثقافات ذات مكانة راسخة ، ليس لأن جميع الثقافات كذلك ، بل لأن هذه هي الطريقة التي نتخيلها بها . وبعبارة أبسط ، **عندما نفكر في الهوية الثقافية أو نتخيلها ، فإننا نميل إلى "رؤيتها" في مكان ، في بيئة ، كجزء من مشهد أو "مشهد" خيالي** . نمنحها خلفية ، ونضعها في إطار، لفهمها . فهل يمكننا أن نفكر في "الهويّة الإنجليزية" دون أن نرى ، في مكان ما ، في مخيلتنا ، "أرض إنجلترا الخضراء الجميلة" ، وأكواخها المصنوعة من القش والمزينة بأشجار الورد ، وحدائقها الخضراء وأبراج كنائسها ، و"جزيرة ذات صولجان" ، و"هذا الحجر الكريم المرصع في بحر فضي" ؟

هل يمكننا أن نتخيل كيف يكون الحال عندما تكون "يونانيًا" أو "إيطاليًا" نموذجيًا دون أن يلوح أمامنا مشهد البحر الأبيض المتوسط - شواطئ بيضاء ، وبحر أزرق سماوي ؟ هذه تمثيلات نمطية للهويات الوطنية ؛ لكنني أقترح أن جميع الهويات الثقافية تميل إلى أن يكون لها ... "**مناظرها الذهنية**"، "جغرافياتها الخيالية". هناك ميل قوي لـ"رسم" الهويات الثقافية ، ومنحها مكانًا أو "وطنًا" متخيلًا ، تعكس خصائصه أو تعكس خصائص الهوية المعنية ... لذلك ، يساعد ربط الثقافات والهويات الوطنية بمناظر طبيعية معينة على بناء وترسيخ ارتباط قوي بين الثقافة و"الوطن" . نحن نفكر في... الثقافة موطننا - مكان ننتمي إليه طبيعيًا ، حيث جئنا في الأصل ، والذي طبع هويتنا في المقام الأول ، ونرتبط به بقوة ، كما هو الحال مع عائلاتنا ، بروابط موروثة وإلزامية وغير قابلة للنقاش . أن نكون بين أولئك الذين يتشاركون الهوية الثقافية نفسها يجعلنا نشعر ، ثقافيًا ، بأننا في وطننا . تمنحنا الثقافات شعورًا قويًا بالانتماء ، والأمان ، والألفة .

من ينتمي [إلى إنجلترا]، ومن لا ينتمي ؟

متى اندمجت الشعوب والأمم المختلفة في هوية واحدة ؟ هل يشير استخدام مصطلحات مختلفة ، مثل "إنجليزي" و"بريطاني" ، إلى اختلافات داخل "المملكة المتحدة" ما تزال قائمة ؟ الاسكتلنديون والويلزيون وأيرلندا الشمالية "بريطانيون" أيضًا ، ولكن يبدو أن "الانتماء الإنجليزي" يرتبط ارتباطًا جوهريًا بـ"الانتماء البريطاني" وهو ما لا يلتزم به الآخرون تمامًا . فهل الهوية الوطنية إذن علاقة قوة أيضًا ؟ وإذا كان الرومان والنورمان قد "أصبحوا" إنجليزًا ، فماذا عن المستوطنين الأحدث عهدًا ؟ كم من الوقت يستغرق الأمر ليصبح المرء "إنجليزيًا" ؟ هل يُمكن أن يكون "أسود و إنجليزيًا" ؟

لطالما كانت بريطانيا العظمى كيانًا سياسيًا موحدًا نسبيًا لقرون (على الأقل منذ قانون الاتحاد) ، ولكن من الصعب إثبات أن "السقف السياسي" للدولة القومية البريطانية يشمل ما كان في الأصل شعبًا واحدًا ينتمي إلى ثقافة واحدة (إثنية) . إن المملكة المتحدة ، في الواقع ، نتاج سلسلة من الغزوات والاستيطان والفتوحات ، قامت بها مجموعات عرقية مختلفة ، تنتمي إلى ثقافات مختلفة ، وتتحدث لغات مختلفة ، وتعبد آلهة مختلفة - ولم تتطور إلا تدريجيًا إلى أمة واحدة مركبة . لذلك ، لم تكن مهمة الثقافة الوطنية أن تعكس في ترتيباتها السياسية شعبًا وثقافة موحدين بالفعل ، بل أن تنتج ثقافة يمكن فيها ، مع قليل من الحظ ، توحيد العناصر المختلفة تدريجيًا في شعور بالانتماء المشترك - وهي عملية توحيد ثقافي لم تنجح ، في أحسن الأحوال ، إلا نجاحًا حزبيًا . على المرء أن يفكر فقط في الاختلافات الإقليمية والثقافية والطبقية والجنسانية و"العرقية" والاقتصادية واللغوية التي ما تزال قائمة داخل حدودها ؛ وفي التوترات التي تصاحب الآن فكرة "المملكة المتحدة" هذه ؛ ودور "الثقافة الإنجليزية" كثقافة مهيمنة على "الأمم" الأخرى داخل المملكة - وهي حقيقة تُثير حفيظة العديد من الاسكتلنديين والويلزيين وأيرلندا الشمالية ، وتُغذي المشاعر والتطلعات القومية في مختلف

أنحاء المملكة المتحدة . حتى بعد قرون ، ما تزال "وحدة" المملكة المتحدة هشة إلى حد ما . في الواقع ، أصبحت في السنوات الأخيرة ، نتيجةً للتحرك نحو الاتحاد الأوروبي ونمو المشاعر القومية داخل المملكة المتحدة ، مصدر قلق وجدل عام متزايد .

لذا ، فإن دور الثقافة الوطنية - وربما دور الثقافات عمومًا - لا يتمثل في التعبير عن مشاعر الانتماء الوحدوية "الموجودة دائمًا في الثقافة" ، بل في تمثيل ما هي في الواقع اختلافات حقيقية كوحدة واحدة ؛ لإنتاج ، من خلال "سردها المستمر للأمة" (في التعليم ، والأدب ، والرسم ، ووسائل الإعلام ، والثقافة الشعبية ، والتراث التاريخي ، وصناعة الترفيه ، والإعلان ، والتسويق ، وما إلى ذلك) هويةً وشعورًا بالانتماء ، والذي ، دون رعاية مستمرة ، لن يكون كافيًا لربط الأمة معًا عبر انقسامات الطبقة ، والمنطقة ، والجنس ، و"العرق" ، وعدم التكافؤ في التنمية الاقتصادية .

وإذا كان هذا ينطبق على ثقافة المملكة المتحدة ، وهي دولة قومية مستقرة نسبيًا لم تتعرض للغزو لقرون عدة ، فكم بالحري ينطبق على الثقافات الوطنية الأخرى في أوروبا الغربية ، والتي لم يتوحد الكثير منها (مثل ألمانيا وإيطاليا) حتى القرن التاسع عشر، والتي تتضمن داخل حدودها السيادية اختلافات عرقية وثقافية حادة للغاية بين المناطق ، وخاصة بين "الشمال" و"الجنوب" . أوروبا نتاج فتوحات متتالية ، واستعباد شعوب ، غالبًا في إطار إمبراطوريات سبقت تشكيل الدولة القومية بزمن طويل (مثل الإمبراطورية الرومانية المقدسة) .

هذا لا ينفي وجود سمات ثقافية مشتركة بين الشعوب والثقافات المتجمعة تحت سقف هذه الدول القومية "المركزية" في أوروبا الغربية . ولكنه يؤكد على الاختلافات العميقة التي ما تزال قائمة ، والتي اضطرت هذه الثقافات الوطنية المشتركة إلى تجاوزها باستمرار . هذا يُشير إلى مفهوم مختلف تمامًا للثقافة - مفهوم لا تكون فيه "الثقافة" كيانًا بسيطًا وموحدًا ، بل يجب دائمًا عدها مكونة من أوجه تشابه واختلاف ، واستمرارية وعناصر جديدة ، تتسم بالانقطاعات ، ويتقاطع معها دائمًا الاختلاف . معانيها هي نتاج عملية تفاوض ثقافي متواصلة ، تتغير باستمرار وتتغير معالمها لاستيعاب التوترات المستمرة . الثقافات المُصوَّرة بهذه الطريقة لا تمتد إلى الوراء ، لا تتغير، بل تدوم إلى الأبد . إنها لا تقدم نقطة انطلاق ثابتة واحدة تُرسّخ الهويات الثقافية إلى الأبد ، مما يضمن أن جميع من انتموا إليها كانوا ، أو أصبحوا ، أو مقدر لهم أن يبقوا على حالهم (أي متطابقين) .

يوحي هذا بأن ما نسميه القومية - أيديولوجية الانتماء كشعب واحد إلى ما يُشار إليه أحيانًا بـ "عائلة" الأمة والثقافة الوطنية - لا ينشأ (كما تُخبرنا القصة الوطنية) لأن هذا ما كان عليه دائمًا في الماضي . بل هو عنصر أساسي في العملية المستمرة لتوحيد الناس أو ربطهم معًا ، مما يخلق من خلال هذه الخطابات فكرة عن الأمة يُمكنهم من خلالها التماهي معها ، وبهذه الطريقة يربطون الاختلافات ويرسّخون الأمة في الحاضر ، من أجل المستقبل . غالبًا ما تستدعي القومية العودة إلى أمجاد الماضي أو فضائله (تذكروا تصريح السيدة تاتشر إبان حرب الفوكلاند ، بأن "بريطانيا يمكن أن تعود عظيمةً من جديد") . لكن هدفها الحقيقي هو إنتاج شيء ما - ثقافة موحدة - في المستقبل . **القومية تُعيد دائمًا صياغة "سردية الأمة" كعودة إلى الأصول المفقودة أو المنسية . لكن مشروعها في الواقع هو خلق شيء لم يوجد بعد بشكل كامل - ثقافة موحدة .**

إن الدول القومية في أوروبا الغربية ، التي نعدها الآن "محركات" الحداثة والتطور العالمي ، هي في الواقع جميعها تشكيلات مختلطة ثقافيًا وعرقيًا - "مهجنة" ، على حد تعبير سنتناوله بمزيد من التفصيل لاحقًا .

الوضع في أوروبا الوسطى والشرقية ، وفيما كان يُعرف سابقًا بالاتحاد السوفيتي ، أكثر تعقيدًا . هنا ، غالبًا ما كانت الدول القومية نتاجًا حديثًا نسبيًا لتفكك الإمبراطوريات السابقة (الإمبراطوريتان النمساوية المجرية والعثمانية ، على سبيل المثال) ؛ أو لتوسع شعب واستيعابه قسرًا من قبل شعب آخر (دول البلطيق)

؛ أو للحلول التعسفية التي توصلت إليها "القوى العظمى" على طاولات المؤتمرات (تشيكوسلوفاكيا السابقة) . لقد أثبت إطار الثقافة الوطنية هنا أنه أقل ديمومة مما هو عليه في الغرب . لقد أثبت عجزه عن توحيد الشعوب ذات الثقافات واللغات والأصول العرقية أو المعتقدات الدينية المختلفة ، والذين عاش الكثير منهم لعقود في مجتمعات "متعددة الثقافات" - كما تُظهر الأحداث الأخيرة في يوغوسلافيا السابقة بشكل مأساوي .

أوروبا ، شرقها وغربها ، مختلطة ثقافيًا لدرجة أن الجهد المبذول لإلزام كل "وطن" باحتواء إن فكرة وجود جماعة عرقية واحدة ، لتكوين أمم من ثقافة واحدة... لتوحيد شعب واحد ، عرق واحد ، تحت "سقف سياسي" واحد ، لا تلتقي إلا بالأقليات العديدة التي تعيش في المكان نفسه ، والتي لا تنتمي إلى الثقافة نفسها ولكنها تُصر على عد ذلك المكان "وطنها" أيضًا... لا يمكن في هذه المرحلة المتأخرة من التاريخ ، في الواقع ، ولادة ثقافة "صربية" موحدة ، مترابطة ، ومتماسكة داخليًا ، إلا بالعنف - وهذا النوع من "التطهير العرقي" الذي شهدناه في البوسنة والهرسك هو نتيجته المباشرة . باختصار، على الرغم من أن الثقافات أحيانًا ما تكون "مُوَضَّعة" ونميل إلى تخيلها متحدة ومتجانسة بقوة ، متكاملة بالتقاليد في مشهد طبيعي ومرتبطة بوطن ، **إلا أن الجهد المبذول - في ظل الخلفية المعقدة والمُعذَّبة للتاريخ الحديث - لجعل "الثقافة" و"المكان" متوافقين مع بعضهما البعض يتبين أنه وهمٌ ميؤوس منه ، ومكلف ، وعنيف وخطير أحيانًا .**

في بعض الروايات ، يرتبط مفهومٌ أكثر انفتاحًا وتنوعًا للثقافة ارتباطًا وثيقًا بعملية العولمة . وكثيرًا ما يُقال إن وتيرة العولمة في العقود القليلة الماضية كانت مكثفة بشكل خاص . لقد تكثف الزمان والمكان عالميًا بطرق لم تكن مُتصوَّرة قبل بضعة عقود ، والعديد من الأشكال التي تُنظِّم المرحلة الأخيرة من العولمة هي أشكالٌ جديدة . ومع ذلك ، فإن العولمة ليست عمليةً جديدةً أو حديثة . إنها تتزامن تقريبًا مع كامل الفترة التاريخية التي نسميها الآن "الحداثة" .

كانت أوروبا الدول القومية... وافدًا متأخرًا نسبيًا ، تاريخيًا . قبل ذلك ، لم يكن هناك ما يُسمى أوروبا أو ثقافة أوروبية أو هوية أوروبية ، على الأقل ككيان واحد أو موحد . كانت اليونان ، مهد الحضارة الأوروبية المزعوم ، عبارة عن سلسلة من دول المدن ، ذات روابط أوثق بشمال إفريقيا منها بالدول المطلة على بحر الشمال . في عصور ما قبل الكلاسيكية ، كانت المنطقة التي نسميها أوروبا محتلة من قبل قبائل وشعوب متفرقة ولم تُشكل وحدة واحدة من أي نوع . تشكلت أوروبا من خلال سلسلة من التجمعات الأكبر، معظمها من النوع الإمبراطوري ، والتي كانت واسعة النطاق للغاية من الناحية المكانية : انتشرت فتوحات الإسكندر الأكبر في جميع أنحاء شرق البحر الأبيض المتوسط ومعظم غربه وجزء كبير من الشرق الأدنى ؛ امتدت الإمبراطورية الرومانية من اسكتلندا إلى الصحراء الأفريقية ، ومن جبل طارق إلى نهر الفرات ، و وصلت طرقها التجارية إلى الهند والهند الصينية والشرق الأقصى . بحكم التعريف ، حكمت هذه الإمبراطوريات ثقافات وشعوبًا عديدة ومختلفة .

العولمة هي العملية التي تتقاطع بها مناطق العالم المنفصلة نسبيًا في "فضاء" وهمي واحد ؛ عندما تجتمع تواريخها في منطقة زمنية أو إطار زمني يهيمن عليه زمن الغرب ؛ عندما تُجسّر الحدود الفاصلة التي يعززها المكان والمسافة من خلال الروابط (السفر ، والتجارة ، والغزو ، والاستعمار ، والأسواق ، ورأس المال ، وتدفقات العمالة ، والسلع ، والأرباح) التي تآكلت تدريجيًا التمييز الواضح بين "الداخل" و"الخارج" . أصبح تاريخ العالم الجديد ، والهند ، وآسيا ، وأفريقيا ، تدريجيًا ، جزءًا تابعًا للتاريخ "الداخلي" للغرب . كانت بداية ذلك الإطار الزمني غير المتوازن الذي نسميه "الزمن العالمي" .

نشير بالعولمة ، من منظور تاريخي طويل ، إلى عدد من العمليات المختلفة : استكشاف الغرب لأجزاء من العالم كانت "مجهولة" حتى ذلك الحين (أي غير معروفة لأوروبا) . توسع التجارة العالمية

والمراحل الأولى لبناء "سوق عالمية" . حركة استثمارات رأس المال ونقل الأرباح والموارد بين المدن الكبرى والأطراف . الإنتاج واسع النطاق للمواد الخام والأغذية والمعادن والسلع للصناعات والأسواق في أماكن أخرى . عملية الغزو والاستعمار التي فرضت أنظمة حكم ومعايير وممارسات ثقافية أخرى على الثقافات الخاضعة .

الهجرات التي بدأت ، والمستوطنات والبؤر الاستيطانية التي أُنشئت . إنشاء مناطق نفوذ ثقافي إمبريالية قوية ، حتى في الحالات التي تم فيها تجنب الاستعمار المباشر: بريطانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال في الشرق الأوسط والشرق الأقصى ؛ والبريطانيون والإسبان والبرتغاليون والهولنديون في أمريكا اللاتينية ؛ واستعمارات الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين للمحيط الهادئ ؛ وتنافس القوى العظمى على المستعمرات في أفريقيا . في أعقاب ذلك ، بدأت فكرة الثقافة كمجموعة من أنظمة وممارسات المعنى المستقلة والمغلقة تبدو وكأنها فكرة عفا عليها الزمن .

كان على ثقافات أجزاء كثيرة من العالم ، ولأول مرة ، أن تتفاوض مع الثقافات المستعمرة المفروضة عليها من خلال الغزو والاستيطان والتجارة أو الإدارة والحكم المباشرين . **صدّر المستعمرون الثقافة الأوروبية إلى الأماكن التي غزوها . وتبعت التأثيرات الثقافية الأخرى - الدين واللغة والتعليم والأنظمة القانونية ومفاهيم الملكية – الراية .** وكثيرًا ما قُسِّمت أساليب حياة السكان الأصليين ودُمّرت ؛ حُوّلت عادات وقيم جديدة إلى مكانها . وتبعت تحولات القوة تحركات سكانية ، مخططة وغير مخططة ، وبدأت الثقافات تُعرّف ، ليس من حيث قيمها الأصيلة ، بل من خلال علاقتها (التي عادةً ما تكون قوة) بالثقافات الأخرى . وبدأت الثقافة تُشكّل إحدى الدوائر الحاسمة التي تنتقل عبرها أنواع مختلفة من القوة – اقتصادية ، وسياسية ، ودينية ، وجنسانية ، وعرقية . ويمكننا القول إن العالم أصبح ، من خلال هذه العملية ، "عالميًا" لأول مرة .

وبعيدًا عن كونها حركة أفكار هادئة ، ارتبطت الثقافة والقوة ارتباطًا وثيقًا بعملية العولمة منذ بدايتها . إن إرساء مجالات التأثير الثقافي ، والعلاقات الهرمية للهيمنة والتبعية بين الثقافات المُستعمِرة والمُستعمَرة ، وبين الجماعات العرقية المختلفة ، وبين "المتحضرين" و"البرابرة" ، وعلاقات القوة الثقافية المتغيرة التي أعقبت مراحل العولمة المتعاقبة ، يصعب المبالغة فيها . وقد بدأت العملية نفسها تقريبًا في أماكن أخرى حول العالم - على سبيل المثال ، في شبه القارة الهندية ، وجنوب شرق آسيا ، وأفريقيا - في أعقاب "المغامرة الأوروبية الإمبريالية" .

ومع تعمق انضغاط الزمان والمكان ، أصبحت ثقافات المزيد والمزيد من الأماكن مُترجمة . ومع تحفيز الهجرة الحديثة لتدفقات الشعوب ، أصبحت الثقافات ، على نحوٍ مميز ، تتألف ليس من تقاليد وأنماط ثقافية واحدة ، بل من تقاليد وأنماط ثقافية متنوعة . هناك حجة أخرى مفادها أنه في حين أن العولمة في المراحل الأولى من التوسع الاستعماري كانت تميل إلى فرض القيم والمعايير الثقافية الحضرية على ثقافات الأطراف ، فإن هذه العملية - التي يكملها إلى حد كبير الطابع العالمي للاتصالات الحديثة والصناعات الاستهلاكية - أصبحت الآن أكثر تعقيدًا . مُعقَّدٌ بفعل التدفق العكسي : من ثقافات "الهوامش" المُفقَرة إلى المراكز الحضرية . وبهذا المعنى ، فإنَّ التَّناغم الثقافي النموذجي للمدن الاستعمارية القديمة مثل كينغستون ، ومومباسا ، وبومباي ، وسايغون ، وهونغ كونغ ، يُكمَّل ويُوسَّع الآن من خلال العمليات متعددة الثقافات التي تُعيد تشكيل وتهجين لندن ، وباريس ، ولوس أنجلوس ، ونيويورك... ومدن "العالم الثالث" في العالم الأول مثل تورنتو، ومرسيليا ، وميامي . ومع ذلك ، فإنَّ هذه طريقةٌ تطوريةٌ للغاية لوصف ما هي في الواقع استراتيجيات بديلةٌ مُتنازعٌ عليها بشدة في عملية التغيير الثقافي .

يُوحي الأمر وكأنَّ المجتمعات ستتطور بسلاسةٍ ودون مشاكل من أحد نماذجنا إلى الآخر . ما يُغفله هذا التفسير هو مسألة القوة الثقافية والمقاومة الثقافية ؛ وقضايا السياسات الثقافية التي تدعم مثل هذه التحولات ؛ التيارات المختلفة ، والمتناقضة في كثير من الأحيان ، التي تُشكّل النسخة الحديثة من "حروب الثقافات" ؛ والطريقة التي أصبحت بها مسألة الهوية الثقافية القضية المحورية - ما هو على المحك في نهاية المطاف ، والذي يُناضل من أجله ، في هذه التحولات الثقافية . **بالنسبة للعديد من المجموعات ، لطالما عد البقاء الثقافي معتمدًا على إبقاء الثقافة "منغلقة" – سليمة ، متجانسة ، موحدة داخليًا ، مع حدود واضحة تفصلها عن "الآخرين" .**

يُنظر إلى الكرولة ، والتبادل الثقافي ، والتهجين - أيًا كانت المصطلحات التي نرغب في استخدامها لوصف الثقافة في ظل تأثير العولمة - على أنها تُهدد سلامة الثقافة وتُضعف الشعور بالهوية الثقافية التي تجمع المجموعة . من هذا المنظور ، تُضعف الهجرة روابط الانتماء ، ويُنظر إلى الكرولة على أنها شكل من أشكال التخفيف – وربما ، حتى ، التلوث الثقافي . الاستراتيجية الوحيدة المجدية هي التمسك بالتقاليد الثقافية ، وإعادة تأكيد عناصر الثقافة التي تحافظ على روابطها بماضي الفرد ، والحفاظ على "نقاوة" هذه الصلة ، ومقاومة جميع أشكال التوفيق بين المعتقدات كونها في الواقع "فقدانًا للهوية" ، ومواجهة هذه الخسارة المحتملة من خلال "العودة" إلى جذور الفرد الثقافية ، والتمسك بهويته المؤسسة ؛ وبالتالي ، بهذه الطرق ، يتم غلق المجتمع حول معتقداته وقيمه الثقافية الأساسية .

يمكننا أن نسمي هذه الاستراتيجية إحياء الهوية العرقية - أي محاولة استعادة تعريفات قوية ومغلقة لما يُشكل ثقافة . والمثير للدهشة أن هذه الاستجابة للعولمة نجدها في أواخر القرن العشرين في كلٍّ من الشعوب "المستعمِرة" و"المستعمَرة" ، في كلٍّ من "المركز" و"المحيط" ، فيما يُعتَقَد عادةً أنها مجتمعات تقليدية وحديثة . في الواقع ، عادت هذه الظاهرة بقوة ، وبشكل غير متوقع إلى حد ما ، إلى الساحة العالمية في السنوات الأخيرة . وهي تتخطى التحالفات السياسية المعتادة بين "اليسار" و"اليمين" ، وتُفرّق أحيانًا أعضاء المجتمع الثقافي نفسه عن بعضهم البعض .

وهكذا ، يمكننا أن نرى دليلاً على هذا الاتجاه في إحياء القومية التي نجدها بأشكال متجددة في أوروبا الوسطى والشرقية وفي الاتحاد السوفيتي السابق . ولكن يمكنك أيضًا أن ترى ذلك في رد فعل "إنجلترا الصغيرة" في بريطانيا على الخوف من فقدان السيادة لصالح "أوروبا" ؛ ويتجلى ذلك جليًا في نمو العنصرية وعودة الحركات العنصرية والفاشية الجديدة في جميع أنحاء أوروبا الجديدة ، والتي تركز على تهديد المهاجرين القادمين إلى أوروبا من أفريقيا والشرق الأوسط ومنطقة البحر الكاريبي وآسيا ، أو الخوف من اجتياح "المهاجرين الاقتصاديين" لأوروبا بحثًا عن حياة أفضل ، أو بسبب مشكلة اللاجئين .

ظهرت أشكال من العنصرية الثقافية في السنوات الأخيرة ، ليس فقط في ما يُسمى بالأجزاء "المتخلفة" من أوروبا في الشرق ، بل في قلب أوروبا الحديثة - في بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا . ويمكنك بالتأكيد أن تجد تعريفًا حصريًا بالقدر نفسه لـ "الثقافة" - هذه المرة مع التركيز على الدين بدلاً من "العرق" أو الإثنية - في أشكال الأصولية الإسلامية التي اكتسبت أرضية في السنوات الأخيرة في إيران ومصر والجزائر، وكذلك في نجاح الحركة الأصولية الهندوسية في الهند . لكن "الأصولية" لا تقتصر على ما يُسمى "العالم الثالث" . يمكننا أن نرى نسخةً محترمةً (وإن لم تكن وثيقة الصلة بالدين) بدأت تجذب الدعم من قِبل الجماعات في كلٍّ من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة التي تُريد التراجع عن "التعددية الثقافية" في التعليم والعودة إلى تعريفاتٍ أكثر تقليديةً وحصريةً لـ"الهوية الإنجليزية" ؛ أو من قِبل أولئك الذين عارضوا بشدة إدراج آداب الشعوب الأخرى ، أو حتى أعمال الكاتبات من ثقافاتٍ أخرى ، في النصوص الأدبية التي تُدرّس

في الكليات والمدارس - على الرغم من أن المدارس والجامعات الحضرية البريطانية والأمريكية قد شهدت تحولاً في السنوات الأخيرة بفعل الهجرات من أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي وآسيا .

هذه كلها ، بالطبع ، أمثلةٌ مختلفةٌ تمامًا ، ولها تاريخٌ مُحددٌ مُختلف ، وأنا لا أحاول تمثيلها على أنها جميعها متشابهة . مع ذلك ، ما أشير إليه هو أنها جميعًا تشترك في سمةٍ واحدة . هناك سمة مشتركة مهمة : يتمثل رد فعلهم على العولمة في العودة إلى تعريفات أكثر "انغلاقًا" للثقافة ، في مواجهة ما يرونه تهديدات للهوية الثقافية التي تُمثلها العولمة في أشكالها أواخر القرن العشرين . إنهم يُشيرون إلى إحياء التعلق بجوانب ثقافية أكثر "محلية" ، أو ثابتة ، أو مُحددة . قد لا يكون هذا التحول مفاجئًا في عالم تتجاوز فيه العولمة الحدود بشكل متزايد ، وتخلط التقاليد ، وتخلط بين "نحن" و"هم" ، و"الداخل" و"الخارج" ، وتبني هويات قائمة على أشكال هوية أقل "رسوخًا" .

هناك طرق أخرى لتخيل مجتمعات الانتماء ، لا تتمحور حول الدولة القومية أو "قصة" الهوية القومية ، والتي تتخطى وتُزعزع العديد من هذه الحدود والحواجز ، وتوفر موارد بديلة لبناء الهوية وصياغة الثقافة . هناك طرق عديدة لوصف هذه الاستجابة الثقافية لعولمة الثقافة : فكرة **"المدينة العالمية"** إحدى هذه الطرق ؛ ومفهوم "التعددية الثقافية" وآثارها داخل الحدود الثقافية الراسخة للدولة القومية الغربية طريقة أخرى . ويمكن إيجاد طريقة أخرى لتأطير العلاقة الجديدة بين الثقافة والمكان والهوية في المفهوم الذي بدأ العديد من النقاد الثقافيين يستخدمونه... فكرة **الشتات** . يمكن ، بطبيعة الحال ، استخدام مصطلح الشتات بمعنى "مغلق" ، لوصف سعي الشعوب التي تشتتت ، لأي سبب كان ، عن "أوطانها الأصلية" ، لكنها تحافظ على روابطها بالماضي من خلال الحفاظ على تقاليدها سليمة ، وسعيها في نهاية المطاف للعودة إلى الوطن - "الموطن" الحقيقي لثقافتها - الذي فُصلت عنه .

ولكن هناك طريقة أخرى للتفكير في الشتات . يشير مصطلح "الشتات" أيضًا إلى تشتت الشعوب التي لن تتمكن أبدًا من العودة حرفيًا إلى الأماكن التي أتت منها ؛ والتي يتعين عليها التأقلم مع الثقافات الجديدة ، التي غالبًا ما تكون قمعية ، والتي أُجبرت على الاتصال بها ؛ والتي نجحت في إعادة تشكيل نفسها وصياغة أنواع جديدة من الهوية الثقافية من خلال الاعتماد ، بوعي أو بغير وعي ، على أكثر من مرجع ثقافي واحد . هؤلاء أناس ، كما كتب سلمان رشدي في مقاله في "أوطان خيالية" ، "بعد أن هاجروا عبر العالم... أصبحوا رجالاً (ونساءً) مُترجمين" . إنهم أناس ينتمون إلى أكثر من عالم ، ويتحدثون أكثر من لغة (حرفياً ومجازياً) ، ويسكنون أكثر من هوية ، ولديهم أكثر من وطن ؛ تعلموا التفاوض والترجمة بين الثقافات ، ولأنهم نتاجٌ لا رجعة فيه لتاريخ وثقافات متشابكة متعددة ، فقد تعلموا العيش مع الاختلاف ، بل والتحدث انطلاقاً منه .

إنهم يتحدثون من "الوسط" بين الثقافات المختلفة ، مُزعزعين دائماً افتراضات ثقافة من منظور ثقافة أخرى ، وبالتالي يجدون سبلاً ليكونوا متماثلين ومختلفين في الوقت نفسه عن الآخرين الذين يعيشون بينهم . بالطبع ، يحمل هؤلاء الأشخاص سمات الثقافات واللغات والتاريخ والتقاليد الخاصة التي "شكّلتهم" ؛ لكنهم لا يحتلون هذه السمات كما لو كانت نقية ، غير متأثرة بمؤثرات أخرى ، أو يُشكّلون مصدرًا لهويات ثابتة يمكنهم "العودة" إليها بالكامل . إنهم يُمثلون أنواعًا جديدة من الهويات - طرقًا جديدة "للشعور بالانتماء" - في عالم الحداثة المتأخرة . وعلى الرغم من أنها تُمثّل سمة من سمات الاستراتيجيات الثقافية التي يتبناها المهمّشون في أحدث مراحل العولمة ، إلا أن عددًا متزايدًا من الناس عمومًا - ليس فقط المُستعمَرين أو المهمّشين - بدأوا يُفكّرون في أنفسهم ، وفي هوياتهم ، وعلاقتهم بالثقافة والمكان ، بهذه الطرق "الأكثر انفتاحًا" .

إنها بلا شك أحد أعظم مصادر الإبداع الثقافي اليوم - وما يبدو أن ثقافة الحداثة المتأخرة (الروايات ، والقصائد ، واللوحات ، والصور ، والأفلام ، والفيديو ، إلخ) تدور حوله . باستخدام هذا الأسلوب ، يُوفر مفهوم الشتات إطارًا بديلًا للتفكير في "المجتمعات المُتخيلة" . فهو يتجاوز الحدود التقليدية للدولة القومية ،

ويُوفر روابط عبر حدود المجتمعات الوطنية ، ويُسلط الضوء على الروابط التي تتقاطع - وبالتالي تُزعزع وتُزعزع - مفاهيمنا الراسخة حتى الآن عن الثقافة والمكان والهوية . ولأنه يقع مكانيًا ، ولكنه مُتخيل على أنه لا ينتمي إلى مكان واحد ، بل إلى أماكن مختلفة عدة ، **فإن فكرة الشتات تُعارض بشدة الطريقة التي أُدرج بها المكان تقليديًا في قصة الثقافة والهوية . وبالتالي، فهو يُشكل علاقة جديدة بين المصطلحات الرئيسية الثلاثة - الثقافة والهوية والمكان .**

من منظور الشتات ، للهوية "أوطان" مُتخيلة عديدة (وبالتالي ليس لها وطن أصلي واحد) ؛ ولها طرق مُختلفة عديدة "للشعور بالوطن" - منذ... يتصور هذا المفهوم الأفراد على أنهم قادرون على رسم خرائط مختلفة للمعنى ، وتحديد مواقعهم في جغرافيات خيالية مختلفة في الوقت نفسه - ولكنه ليس مرتبطًا بمكان واحد محدد . كما أنه يخالف مفهومًا معينًا للتقاليد - الشيء الذي يُفترض أن يربطنا بأصولنا في الثقافة والمكان والزمان . **في النسخة "المغلقة" من الثقافة ، يُنظر إلى التقاليد على أنها حزام نقل أحادي الاتجاه ؛ حبل سري يربطنا بثقافتنا الأصلية . في النهاية ، إذا حافظنا على نقاء الروابط ، فإنها ستقودنا إلى حيث ننتمي.**

تفترض النسخة "المغلقة" أنه كلما ابتعدت عن أصولك ، زاد انفصالك عن ثقافتك الحقيقية . إنه مفهوم خطي للثقافة . **في مفاهيم "الشتات" للثقافة ، لا تكون الروابط خطية بل دائرية** . يجب أن نفكر في الثقافة على أنها تتحرك ، ليس في خط مستقيم ، بل عبر دوائر مختلفة . يجادل بول جيلروي في كتابه "الأطلسي الأسود" بأنه إذا أردتَ سرد قصة الموسيقى السوداء ، فلن تُنشئ قصةً عن كيفية نشأة الموسيقى السوداء "الأصيلة" في أفريقيا وكيف تضاءلت مع كل تحول لاحق – البلوز ، والريغي ، والأفرو كوبي ، والجاز ، والسول ، والراب - وكلها تُمثل "فقدانًا للتقاليد" كلما ابتعدت الموسيقى عن جذورها .

بدلًا من ذلك ، عليك الانتباه إلى الطريقة التي انتقلت بها الموسيقى السوداء عبر الشتات وحوله عبر مسارات عديدة ومتداخلة . ستُظهر مدى اختلاف الموسيقى والإيقاعات "الأفريقية" العديدة التي جلبها العبيد معهم في الأصل من أفريقيا ؛ ومدى تحولها ، أولًا بسبب الحياة في مزارع العبيد ، ثم بتأثير أنواع الموسيقى "الأوروبية" المختلفة ، وخاصةً بتأثير الموسيقى الدينية . كيف في أمريكا ، في موسيقى البلوز - الحضرية أو الريفية ، العلمانية أو الدينية - خضعت هذه التقاليد الموسيقية المعقدة بالفعل لمزيد من التعديل ، مع هجرة السود إلى المدن ؛ وكيف ، في موسيقى الجاز ، والسول ، والريغي ، والراب ، يمكن للمرء أن يرى الأشكال الموسيقية تُعاد صياغتها وتحويلها باستمرار لإنتاج ، ليس نسخة مخففة من الموسيقى "الأفريقية" ، بل مجموعة متنوعة من موسيقى الشتات الأسود الجديدة (الجمع) . ويمكن للمرء أيضًا أن يرى كيف تحولت كل هذه الأنواع مرة أخرى في ظروف هجرة ما بعد الحرب .

تشمل الأمثلة تأثير موسيقى الريذم أند بلوز الأمريكية على الموسيقى الشعبية الجامايكية التي أنتجت موسيقى السكا والريغي نفسها (والتي كانت موسيقى جديدة ، وليست تقليدية) ؛ أو تأثير الموسيقى الجامايكية ، التي عُزفت على "الصوت" العظيم أنظمة "السبعينيات" ، التي نقلها منسقو أغاني جامايكيون إلى برونكس ، واندمجت مع تقليد "التحدث المباشر" من منسقي الأغاني المتجذر في التقاليد الشعبية السوداء القوية لموسيقى السول الأمريكية ، ثم مع إيقاعات من مجتمع المهاجرين من أصل إسباني ، لتشكل بذلك المصفوفة التي انبثقت منها موسيقى الراب المعاصرة .

أو يمكن للمرء أن يتبع ، على مسار مختلف ، تكيف موسيقى الريغي "الجذور" الجامايكية مع الظروف البريطانية ، وكيف تأثرت بموسيقى السول السوداء وغيرها من الموسيقى الشعبية في المملكة المتحدة لخلق الأصوات المميزة للموسيقى السوداء البريطانية المعاصرة . تربط هذه القصص الشتات "الأسود" المختلف حول المحيط الأطلسي ، وتربط أفريقيا بمستوطنات السود في العالم الجديد التي نشأت بسبب العبودية ، وبعمليات إعادة التوطين في العالم القديم التي شكلتها هجرة ما بعد الحرب . لكنها لا تربطهم في اتجاه واحد

فقط . هناك أيضًا تيارات موسيقية معاكسة : على سبيل المثال ، فنانو الراب البريطانيون السود الذين يتنقلون بين أسواق المملكة المتحدة والولايات المتحدة ؛ أو موسيقى الشتات السوداء المستوردة إلى أفريقيا ، والتي تُعزف هناك ، مما أثر على نمو أنواع جديدة من الموسيقى الشعبية الأفريقية ، الحضرية والحديثة (وليست "قبلية" وتقليدية) .

يأخذ كل نوع من أنواع الموسيقى السوداء بعض العناصر "الأفريقية" - العناصر الإيقاعية والصوتية على وجه الخصوص - من تقاليد متواصلة ومشتركة بين جميع الشتات . وقد تأثر الكثير منها بالفعل بثقافة عبودية المزارع . لكن هذه الموسيقى ، مع ذلك ، ليست هي نفسها ، لأن كل منها دمج هذه العناصر مع عناصر جديدة مختلفة . فقد اتخذ كل منها شكل وبصمة السياقات الوطنية التي تطورت فيها (قارن بين الموسيقى الأفرو- كوبية وجاز نيو أورلينز؛ أو موسيقى الريذم آند بلوز الأمريكية و"السول الشمالي" البريطانية) . وهكذا ، فإن ما يربط جزءًا من الشتات الأسود بآخر ليس تقليدًا ثابتًا ، بل مزيجًا معقدًا من الاستمرارية والانقطاعات ، والتشابهات والاختلافات : ما يسميه جيلروي مفهومًا للتقاليد على أنها "الشيء المتغير" .

ولعلك ترغب ، في الختام ، في أن تفكر بنفسك في مدى انطباق التحول الذي أُشير إليه من "الجذور" إلى "المسارات" كطريقة للتفكير في الثقافة ، ليس فقط على شعوب الشتات المستعمرة سابقًا ، والمستعبدة سابقًا ، والمهمشة ، بل إنه يتحول ببطء وبشكل غير متساوٍ إلى نموذج أعم لكيفية إعادة بناء الثقافة والهوية في كل مكان في أواخر الحداثة .